



كلنا يطلب من الله أن يرحمنا ويكشف غمتنا، وكثير منا قد استطال البلاء النازل وال Kelvin الحاصل، ويتساءل الناس متى الفرج؟!

والجواب في قول رسولنا صلى الله عليه وسلم: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء..)

إن كنت ترجو من الرحمن رحمته
فارحم ضعافَ الورى يا صاحِ محترما
وأقصد بذلك وجه الله خالقنا

سبحانه من إله قد برى النَّسَما
واطلب جزا ذاك من مولاك رحمته
فإنما يرحمُ الْرَّحْمَنُ من رحِّمَا

1- التراحم شرط لصلاح المجتمعات:

إن الله تعالى أقام صلاح المجتمعات كلها على أساس واحد لابد منه ألا وهو التراحم، لا فرق في ذلك بين المجتمعات الإنسانية والمجتمعات الحيوانية على اختلافها، فحيثما وجد التراحم صلح المجتمع، وحيثما اختفى التراحم فسد المجتمع، وحيثما نظر إلى المجتمعات الحيوانية على اختلافها نجد أن هذا الشرط موفور بداع من الغريزة والفطرة التي فطر الله الحيوانات العجماء عليها.

ألا تلاحظون نظام حياتها؟ سواء تلك التي تعيش في أعماق البحار، أو تلك التي تعيش في الغابات، أو على الأعشاش المقامة في باطن الأشجار، ألا تلاحظون أن التراحم هو سدى ولحمة حياتها؟

هذا شيء نلاحظه جميعا ولا تكاد تجد لهذا التراحم شذوذا لأنه ينبع من الغريزة والفطرة الحتمية التي لا اختيار للحيوانات في جلها إليها ولا في ردها عنها.

ولكننا عندما ننظر إلى التراحم في المجتمعات الإنسانية نجد أنه متخلخل وكثيرا ما يغيب، وربما وجد من أجل مصالح ذاتية فإذا اختفت المصالح اختفى التراحم أيضا.

وحقا إنه لأمر مثير للعجب، أن ننظر إلى عالم البهائم فنجد أن شرط التراحم موفور وبأدق معانيه، في الوقت الذي لا نجد هذا الشرط موفورا في المجتمع المسلم فضلا عن المجتمع الإنساني عامه، مع أن التراحم في المجتمع الإنساني إنما هو فرض

فرضه الله علينا وليس غريزة فطرية مغروسة بشكل حتمي في نفوس العباد كالحيوانات العجماء.

ونظرا إلى أن الله كرم الإنسان هذا التكريم وجعل التراحم شرعة خاطبه الله بها وأمره بها، فإن الإنسان حر في أن يمارس هذا الواجب أولا، فمن وعي أمر الله تعالى، وأدرك عبوديته له أثبت التراحم بين جوانحه، وحقق هذا الشرط الذي خاطبه الله به، وأما أولئك الذين اختفت مشاعر عبوديتهم لله من بين جوانحهم، وتصور الواحد منهم أنه حر يملك زمام نفسه، ويملك مصيره، فلا بد من أن يختفي مبدأ التراحم فيما بينهم، وإذا اختفى التراحم غابت أوامر الله اختفت ولم تجد سبيلا لتنفيذها؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوضح العلاقة اللزومية بين تراحم الناس فيما بينهم وبين رحمة الله لهم.

قال صلى الله عليه وسلم: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء..)

فكما تراحم الناس رحمة الله تعالى، وكلما اختفى التراحم مما بينهم تقلصت عنهم رحمة الله تعالى.

لقد ذكر الله هذه الصفة العظيمة (صفة الرحمة) في غير ما آية من كتابه الكريم إما في معرض تسميتها واتصافه بها، وإنما في معرض الامتنان على العباد بما يسبغه عليهم من آثارها، أو تذكيرهم بسعتها، أو من باب المدح والثناء على المتصفين بها. فمن ذلك:

تسميه جل وعلا باسم الرحمن الرحيم واتصافه بصفة الرحمة، وهذا كثير جدا في القرآن الكريم.

وقد أثني الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه المتصفين بخلق الرحمة المتخلقين به فقال: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشَدُّ أَشْدَاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رُحْمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح: 29]

فهم أشداء على الكفار رحماء بينهم بحسب ما يقتضيه منهم إيمانهم؛ لأن الإيمان بالله واليوم الآخر متى تغلغل في القلب حقا غرس فيه الرحمة بمقدار قوته وتغافله.

ولقد جاءت السنة النبوية لترغب في هذا الخلق، حيث استفاضت نصوصها الداعية إلى الرحمة الحاثة عليها، كيف لا وصاحبها صلى الله عليه وسلم هو نبى الرحمة كما وصف نفسه، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصف نفسه فيقول (أنا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقْفَى، وَالْحَاسِرُ، وَتَنَيُّ التَّوْتَةِ، وَتَنَيُّ الرَّحْمَةِ) وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضُوًّا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمْيِ)

يقول النووي معلقا على هذا الحديث: "هذه الأحاديث صريحة في تعظيم المسلمين بعضهم على بعض وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاضد في غير إثم ولا مكروه".

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمُكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَالرَّحْمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، مَنْ وَصَلَهَا وَصَلَتْهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَّتْهُ)

"فندب صلى الله عليه وسلم للرحمة والعطف على جميع الخلق من جميع الحيوانات على اختلاف أنواعها في غير حديث، وأشرفها الآدمي، وإذا كان كافر، فلن رحيم لنفسك ولغيرك ولا تستبد بغيرك فارحم الجاهل بعلمه، والذليل بجاهك، والفقير بمالك، والكبير والصغير بشفتك ورأفتك، والعصاة بدعوتك، والبهائم بعطفك، فأقرب الناس من رحمة الله أرحمهم بخلقهم فمن كثرت منه الشفقة على خلقه، والرحمة على عباده، رحمه الله برحمته، وأدخله دار كرامته، ووقاه عذاب قبره، وهو م موقفه، وأظلله بظله إذ كل ذلك من رحمته"

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يرحم الله من لا يرحم الناس)

يقول الإمام السعدي رحمة الله: "رحمة الله للخلق من أكبر الأسباب التي تناول بها رحمة الله عز وجل، والتي من آثارها خيرات الدنيا وخيرات الآخرة، فقدتها من أكبر القواطع والموانع لرحمة الله، والعبد في غاية الضرورة والافتقار إلى رحمة الله، ولا يستغني عنها طرفة عين، وكل ما فيه من النعم واندفاع النقم من رحمة الله، فمتى أراد أن يستبقيها ويستزید منها

فليعمل جميع الأسباب التي تناول بها رحمته، وتجتمع كلها في قوله تعالى **{إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ}** [الأعراف: 56]، وهم المحسنون في عبادة الله، المحسنون إلى عباد الله، والإحسان إلى الخلق أثر من آثار رحمة العبد بهم أما من كان بعيداً عن الإحسان بالخلق ظلوماً غشوماً شقياً فهذا لا ينبغي له أن يطمع في رحمة الله وهو متلبس بظلم عباده.

2- أقسام الرحمة من حيث المدح والذم:

إن خلق الرحمة منه ما هو محمود - وهو الأصل - ومنه ما هو مذموم، فأما الم محمود فهو ما ذكرناه آنفاً واستدللنا عليه من كتاب الله وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم، وأما المذموم فهو ما حصل بسببه تعطيل لشرع الله، أو تهاون في تطبيق حدوده وأوامره، كمن يشفع على من ارتكب جرماً يستحق به حداً فيحاول إقالته والعفو عنه، ويحسب أن ذلك من رحمة الخلق وهو ليس من الرحمة في شيء بل الرحمة هي إقامة الحد على المذنب والرأفة هي زجره عن غيه ورده عن بغيه بتطبيق حكم الله فيه.

قال شيخ الإسلام رحمة الله: "إن العقوبات الشرعية كلها أدوية نافعة، يصلح الله بها مرض القلوب وهي من رحمة الله بعباده ورأفته بهم الداخلة في قوله تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}** [الأنبياء: 107]. فمن ترك هذه الرحمة النافعة لرأفة يجدها بالمريض فهو الذي أعن على عذابه وهلاكه وإن كان لا يريد إلا الخير إذ هو في ذلك جاحداً أحمق". ولذا نهى الله المؤمنين عن أن تأخذهم رأفة أو رحمة في تطبيق حدود الله وإقامة شرعه فقال: **{الَّذِي نَهَاكُمْ عَنِ الْمُحْسِنِينَ إِنَّمَا مِنْهُمْ مَا يَعْمَلُونَ وَلَا تَأْخُذُوهُمْ بِمَا رَأَفْتُمْ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَسْهُدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ}** [النور: 2]

ومن الرحمة المذمومة ما يفعله كثير من الآباء من ترك تربية الأبناء وتأديبهم وعقوبتهم رحمة بهم وعطفاً عليهم فيتسببون في فسادهم وهلاكهم وهم لا يشعرون.

فمن رزقه الله الرحمة وجلبه عليها فبها ونعمت، وإن عليه أن يكتسبها بسلوكه بكل طريق ووسيلة تجعل قلبه على هذا الوصف فيعلم أن هذا الوصف من أجل مكارم الأخلاق وأكملها فيجاهد نفسه على الاتصال بها.

3- من صور الرحمة:

إن للرحمة صوراً وأشكالاً متعددة وسنذكر البعض على سبيل المثال لا الحصر:

أ- البر بالوالدين وخفض جناح الذل من الرحمة لهما: قال الله تعالى: **{وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمَهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}** [الإسراء: 24]

ب- الوصية بالمرأة خيراً والإحسان إليها: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (استوصوا بالنساء خيراً فان المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج ما في الضلع أعلاه فان ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم ينزل أعوج فاستوصوا بالنساء)

ج- الشفقة على الأبناء والعطف والحزن عليهم إذا أصابهم مكروه: فعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء أعرابي إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: تقبلون الصبيان فما نقباهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(أَوْ أَمْلَكَ لَكَ أَنْ تَنْزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةُ)**

د- النهي عن تعذيب الحيوان أو إخافته أو إجهاضه أو إجهاضه: فقد جاء النبي عن ذلك، ففي البخاري عن ابن عمر مرفوعاً: **(دَخَلَتِ امْرَأَةُ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَّبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدْعُهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ)**

ه- وقد أمر الإسلام بإحسان القتلة والذبحة: فعن شداد بن أوس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ إِلَيْنَا إِنَّمَا الْمُحْسِنُونَ الْمُنْهَاجُونَ)** فلما قاتلوا قاتلوا، فإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، ولبيح أحدهم شرفته وليُرِخْ ذبيحته

4- الأسباب المعينة على التخلق بهذا الخلق العظيم والسمينة الكريمة:

إن من أهم هذه الأسباب:

- أ- القراءة في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم والتذكرة في معالمة والتأسي به في موافق رحمته صلى الله عليه وسلم.
- ب- مجالسة الرحماء ومخالطتهم والابتعاد عن ذوي الغلظة والفتواة فالمرء يكتسب من جلسائه طبائعهم وأخلاقهم.
- ج- معرفة جزاء الرحماء وثوابهم وأنهم هم الجديرون برحمه الله دون غيرهم، ومعرفة عقوبة الله لأصحاب القلوب الفاسية فان هذا مما يدفع للتخلق بصفة الرحمة ويردع عن القسوة.
- د- الاختلاط بالضعفاء والمساكين وذوي الحاجة فإنه مما يرقق القلب ويدعو للشفقة بهؤلاء وغيرهم.

5- نماذج من رحمة النبي صلى الله عليه وسلم:

إن الصور والنماذج من رحمة النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من أن تحصى حيث شملت رحمته المؤمنين والكافرين بل والجمادات والحيوانات أيضا، وسأكتفي بذكر أنموذج واحد من رحمته صلى الله عليه وسلم في كل من الحيوان والجماد. فاما عن رحمته بالحيوان: فقد جاء عن عبد الله بن جعفر قال: (أردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه ذات يوم، فأسر إلى حديث لا أحدث به أحدا من الناس، وكان أحب ما استتر به رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته هدف أو حائش نخل. فدخل حائطاً لرجل من الأنصار فإذا جمل، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم حن وذرفت عيناه، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فمسح سراته إلى سنامه وذفراه فسكنَ فقال: مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلَ؟ لَمَنْ هَذَا الْجَمَلَ؟ فجاءه فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله. فقال: أَفَلَا تتقى الله في هذه البهيمة التي ملأ الله إياها؟ فإنه شكا إلى أنك تُجيعه وتُدَبِّه) سراته: أي ظهره وأعلاه. وذفراه: أي مؤخر رأسه، وهو الموضع الذي يعرف من قفاه. قوله: وتدبه، أي: تكده وتنفعه، من الدأب، وهو الجد والتعب.

واما عن رحمته بالجماد: فعن جابر - رضي الله عنه - (أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار: ألا نجعل لك منبرا؟ قال: إن شئت، فجعلوا له منبرا، فلما كان يوم الجمعة رفع إلى المنبر، فصاحت النخلة فنزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وضمتها إليه، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكن، قال: كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها)

قال القاضي: حديث حنين الجذع مشهور منتشر، والخبر به متواتر، خرجه أهل الصحيح، ورواه من الصحابة بضعة عشر. فيما عباد الله: إذا كنا ندعى أننا أتباع لنبينا صلى الله عليه وسلم وأننا صادقون في ذلك فيجب أن نتخلق بأخلاقه والتي من أجلها صفة الرحمة فنترحم بينما خصوصا في هذه الأيام العصيبة التي يمتحن فيها المسلمين بشتى أنواع الامتحان فنحن فيها بأمس الحاجة إلى رحمة الله تعالى ولا تتحقق إلا إذا حققناها في الأرض لأنه جعل بينها وبين تراحمنا فيما بيننا علاقة لزومية بحيث لا تتحقق الثانية إلا إذا تحققت الأولى.

فالله نسأل أن يغرس في قلوبنا الرحمة والرأفة حتى نرحم بعضنا البعض فيمن علينا برحمته وكرمه إنه ولد القادر عليه.

للاستماع للخطبة اضغط هنا

المصادر: